سورة «الضُّحَى»

مكيةٌ باتِّفاق، وهي إحدى عَشْرَةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قد تقدَّم القولُ في «الضحى»[1]، والمرادُ به النهارُ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابَلَه بالليل، وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الآيتان: ٩٧-٩٨] أي: نهاراً.

وقال قتادةُ ومقاتلٌ وجعفرُ الصادقُ: أَقْسَم بالضُّحى الذي كلَّم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج.

وقيل: هي الساعةُ التي خرَّ فيها السَّحَرةُ سجَّداً، بيانُه قولُه تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقال أهلُ المعاني فيه وفي أمثاله[2]: فيه إضمارٌ، مَجازُه: وربِّ الضُّحى.

و«سَجَا» معناه: سَكَن؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ زيدٍ وعكرمةُ[3]. يقال: ليلةٌ ساجيةٌ، أي: ساكنةٌ. ويقال للعَيْنِ إذا سَكَن طَرْفُها: ساجية. يقال: سجا الليلُ[4] يَسْجو سَجْواً: إذا سَكَن. والبحرُ إذا سجا: سَكَن؛ قال الأعشى:

---

(١) عند تفسير الآية (٥٩) من سورة طه، والآية الأولى من سورة الشمس.

(٢) في النسخ الخطية: إقباله، والمثبت من (م) واللباب ٢٠/ ٣٨٠.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨.

(٤) في (ظ) و(ي): الشيء.

فما ذَنْبُنا أن جاش بحرُ ابنِ عمِّكم وبحرُكَ ساجٍ ما يواري الدَّعَامِصا[١]

وقال الراجز:

يا حَبَّذَا القَمْراءُ والليلُ السَّاجْ وطُرُقٌ مِثلُ مُلَاءِ النَّسَّاجْ[٢]

وقال جرير:

ولقد رمينَكَ يومَ رُحْنَ بأعينٍ ينظُرنَ من خَلَلِ السُّتورِ سَوَاجي[٣]

وقال الضحّاك: «سجا»: غطّى كلَّ شيء[٤]. قال الأصمعيُّ: سَجْوُ الليل: تَغْطِيتُه النهارَ، مثلما يُسَجَّى الرجلُ بالثوب[٥].

وقال الحسن: غَشِيَ بظلامه. وقاله ابن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظْلَمَ. وقال سعيد بن جبير: أَقْبَلَ. ورُوي عن قتادةَ أيضاً. ورَوَى ابن أبي نجيحٍ عن مجاهد: «سجا»: استوى[٦].

والقولُ الأوّل أَشْهرُ في اللغة: «سجا»: سَكَن، أي: سَكَن الناسُ فيه. كما يقال: نهارٌ صائمٌ، وليلٌ قائمٌ. وقيل: سكونُه: استقرارُ ظَلامِه واستواؤُه.

ويقال: «والضحى. والليل إذا سَجَا»: يعني عبادَه الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعبادَه الذين يعبدونه بالليل إذا أظْلَم.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٠١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣ ، والصحاح (سجا). ووقع في الديوان: أتوعدني أن جاش بحر...، والدعامص: جمع دُعْموص: دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها. معجم متن اللغة (دعمص).

(٢) العين ٦/ ١٦١ ، ومجاز القرآن ٢/ ٣٠٢ ، والكامل للمبرد ١/ ٣٧١ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩ ، وتهذيب اللغة ١١/ ١٤٠ ، وأساس البلاغة (سجو).

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٧ . قال الشارح: خلل الستور: الفُرَجُ التي بينها. السواجي: الفواتر، وواحدها: ساجية. وفي العين ٦/ ١٦١ : عين ساجية، أي: فاترة النظر، يعتري الحسن في النساء.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٨ .

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ١٤١ .

(٦) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٢ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٩١ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨ .

ويقال: «الضحى»: يعني نور الجنةِ إذا تنوَّر. «والليل إذا سجا»: يعني ظُلمة الليلِ إذا أظْلَم.

ويقال: «والضحى»: يعني النور الذي في قلوب العارِفين كهيئة النهار. «والليلِ إذا سجا»: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأَقْسَمَ الله عزَّ وجلَّ بهذه الأشياء.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: هذا جوابُ القسم. وكان جبريلُ عليه السلام أبطأ على النبيِّ ﷺ، فقال المشركون: قَلَاه الله وودَّعه، فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احْتَبَس عنه الوحيُ اثني عَشَرَ يوماً. وقال ابن عباس: خمسةَ عَشَرَ يوماً. وقيل: خمسةً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً[1]. فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربُّه وقَلاه، ولو كان أمرُه من الله لتابَعَ عليه، كما كان يفعل بمَن كان قَبْلَه من الأنبياء.

وفي البخاريِّ عن جُنْدُب بن سفيان قال: اشْتَكَى رسولُ اللهِ ﷺ، فلَمْ يَقُمْ ليلتين أو ثلاثاً، فجاءتِ امرأةٌ فقالت: يا محمدُ، إنِّي لأرجو أنْ يكونَ شيطانُك قد تَرَكَك، لَمْ أرَه قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

وفي الترمذيِّ عن جُنْدُب البَجَليِّ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في غارٍ فدَمِيتْ إصبعُه، فقال النبيُّ ﷺ: «هَلْ أنْتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سَبيلِ الله مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريلُ فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمدٌ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/٤٩٨، والرازي ٣١/٢١١، وسلفت عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٠)، وهو عند أحمد (١٨٨٠١)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٥). وجندب بن سفيان هو جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي، ومَن قال: ابن سفيان، نسَبه إلى جدِّه، سكن الكوفة، ثم البصرة، قَدِمها مع مصعب بن الزبير، وروى عنه أهل المصرين. الإصابة ٢/١٠٤.

﴿قَلَى﴾. هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. لم يذكر الترمذيُّ: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً»، أسْقَطه الترمذيُّ، وذكره البخاريُّ، وهو أصحُّ ما قيل في ذلك. والله أعلم.

وقد ذكره الثعلبيُّ أيضاً عن جندب بن سفيان البَجَليِّ، قال: رُميَ النبيُّ ﷺ في إصبعه بحجرٍ، فدَمِيَتْ، فقال: «هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيْتِ، وفي سبيل اللهِ ما لَقِيْتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقومُ الليل. فقالت له أمُّ جميلٍ امرأةُ أبي لهبٍ: ما أرى شيطانَك إلا قد تَرَكك، لم أرَه قَرِبَكَ منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فنزلت «والضُّحَى».

وروى عن أبي عمران الجَوْنيِّ قال: أبطأ جبريلُ على النبيِّ ﷺ حتى شَقَّ عليه، فجاءَه وهو واضعٌ جبهتَه على الكعبة يدعو، فنَكَتَ بين كَتِفيه، وأنزل عليه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وقالت خولةُ ـ وكانت تخدُم النبيَّ ﷺ ـ: إنَّ جَرْواً دخل البيتَ، فدخل تحت السَّريرِ، فمات، فمكَثَ نبيُّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحيُ. فقال: «يا خولةُ، ما حَدَث في بيتي؟ جبريلُ لا يأتيني»! قالت خولة: فقلتُ: لو هيّأتُ البيتَ وكنستُه، فأهْوَيْتُ بالمِكْنسةِ تحت السريرِ، فإذا جَرْوٌ ميتٌ، فأخذتُه فألقيتُه خلفَ الجدارِ، فجاء نبيُّ الله تَرْعدُ لحياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحيُ استقبلته الرِّعدةُ ـ فقال: «يا خولةُ دثِّريني» فأنزل الله هذه السورة[٢].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٥)، وأخرجه مسلم مقطَّعاً (١٧٩٦): (١١٣) و(١٧٩٧): (١١٤). وأخرجه دون قوله: وأبطأ عليه جبريل...، أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٢)، وفيه: دَميتْ إصبع رسول الله ﷺ في بعض المشاهد فقال: «هل أنت...». قال القاضي عياض: قد يراد بالغار الجيش والجمع، لا واحد الغيران التي هي الكهوف، فيوافق قوله: في بعض المشاهد. إكمال المعلم ٦/ ١٧٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٣٦)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ وعنه نقل المصنف. قال الحافظ في الفتح ٨/ ٧١٠ : وجدت في الطبراني بإسناد فيه مَن لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره لم يشعر به النبي ﷺ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح. اهـ. وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سرير النبي ﷺ أخرجها أحمد (٢٥١٠٠)، ومسلم (٢١٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجها البخاري (٥٩٦٠) مختصرة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولمَّا نزل جبريل، سأله النبيُّ ﷺ عن التأخُّر فقال: «أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صُورة»(١).

وقيل: لمَّا سألته اليهودُ عن الروح وذي القرنين وأصحابِ الكهفِ قال: «سأُخْبِرُكم غداً» ولم يقل: إنْ شاء الله. فاحتَبَس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣] فأخبره بما سُئل عنه. وفي هذه القصة نزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٢).

وقيل: إنَّ المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالَكَ لا ينزلُ عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزلُ عليَّ وأنتم لا تُنقُّونَ رَوَاجِبَكم ـ وفي روايةٍ بَراجِمَكم ـ ولا تَقصُّون أَظْفارَكم، ولا تأخذون من شَوارِبِكم». فنزل جبريلُ بهذه السورة، فقال النبيُّ ﷺ: «ما جِئْتَ حتى اشْتَقْتُ إليك» فقال جبريلُ: «وأنا كنتُ أشدَّ إليك شوقاً، ولكنِّي عبدٌ مأمور» ثم أنزل عليه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤](٣).

«ودَّعك» بالتشديد قراءةُ العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارِق. وروي عن ابن عباسٍ وابن الزبير أنهما قرأاه: «وَدَعك» بالتخفيف(٤)، ومعناه: تَرَكَكَ. قال:

وثـم وَدَعْـنـا آلَ عَـمْـرٍو وعـامـرٍ فَرائسَ أطرافِ المثقَّفةِ السُّمْرِ(٥)

واستعمالُه قليل. يقال: هو يَدَعُ كذا، أي: يتركُه. قال المبرِّد محمد بنُ يزيد: لا يكادون يقولون: وَدَعَ، ولا وَذَرَ؛ لضَعْفِ الواوِ إذا قدِّمَتْ، واستَغْنَوا عنها بتَرَكَ(٦).

---

(١) قطعة من حديث عائشة وابن عمر ـ ﷺ ـ وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٠٨ ، والبغوي ٤/ ٤٩٧-٤٩٨ ، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٨١) إلى قوله: «شواربكم» من حديث ابن عباس ﷺ، وإسناده ضعيف. وسلف باقي الخبر بنحوه عن مجاهد ١٣/ ٤٨١ . قال الجوهري في الصحاح (رجب): الراجبة في الإصبع واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٥ ، والمحتسب ٢/ ٣٦٤ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٦٣ ، وذكره الحافظ في الفتح برواية: ونحن ودعنا...

(٦) سلف نحوه عن سيبويه ٨/ ٥٠٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبْغضَكَ ربُّك منذ أَحبَّك. وترك الكاف لأنه رأسُ آية. والقِلَى: البغضُ، فإنْ فتَحْتَ القافَ مَدَدْتَ؛ تقول: قَلاَه يَقْلِيه قِلًى وقَلاَءً. كما تقول: قَرَيْتُ الضعيفَ أَقْرِيه قِرًى وقَرَاءً. ويَقْلاَه لغةٌ طيِّئ؛ وأنشد ثعلب:

أيــامَ أمِّ الــغَــمْــرِ لا نَــقْــلاهــا[1]

أي: لا نُبغضُها. ونَقْلَى، أي: نُبغض، وقال:

أسِيئي بنا أو أحْسِني لا ملومةٌ لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[2]

وقال امرؤ القيس:

ولستُ بمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالِ[3]

وتأويلُ الآية: ما ودَّعك ربُّك وما قَلاك، فترك الكاف لأنَّه رأسُ آية، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: والذَّاكِرَاتِ اللهَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾

روى سَلمةُ عن ابن إسحاق قال: ﴿وَلَلآخِرة خير لكَ مِنَ الأولى﴾ أي: ما عندي في مَرْجِعِكَ إليَّ يا محمدُ، خيرٌ لك مما عَجَّلْتُ لك من الكرامةِ في الدنيا[4]. وقال ابن عباس: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما يَفْتحُ الله على أمَّته بَعْدَه، فسُرَّ بذلك، فنزل جبريلُ بقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[5]. قال ابن إسحاق:

---

(١) الصحاح (قلا)، ووقع في النسخ: يا رب، بدل: أيام، والمثبت من الصحاح، واللسان (قلا)، وفيه بعده: ولو تشاء قبَّلتْ عيناها.

(٢) سلف ١٠/ ٢٣٦ .

(٣) وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٣٥ ، وسلف ص٣٢٧ من هذا الجزء.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ .

الفَلْجُ[١] في الدنيا، والثوابُ في الآخرة. وقيل: الحوضُ والشفاعةُ.

وعن ابن عباس: ألفُ قَصْرٍ من لؤلؤٍ أبيضَ ترابُه المِسْكُ[٢]. رَفَعه الأَوْزاعيُّ، قال: حدَّثني إسماعيلُ بنُ عبيدِ الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمَّتِه، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله عزَّ وجلّ: «والضحى ـ إلى قوله تعالى ـ ولَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، فأعطاه الله جلَّ ثناؤه ألفَ قصرٍ في الجنة، ترابُها المِسْكُ، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخدم[٣].

وعنه قال: رِضا محمدٍ ألَّا يدخل أحدٌ من أهلِ بيتِهِ النارَ. وقاله السُّدِّي[٤].

وقيل: هي الشفاعةُ في جميع المؤمنين. وعن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفِّعُني الله في أُمَّتي، حتى يقولَ الله سبحانه لي: أرَضيتَ يا محمد؟ فأقول: يا ربِّ رِضيتُ»[٥].

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله تعالى في إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقولَ عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ أمَّتي أمَّتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى محمدٍ ـ وربُّك أعْلَم ـ فسَلْه ما يُبكيكَ» فأتَى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى

---

(١) في (د) و(ي): الفلح، وفي (ظ): الفتح، والمثبت من (م) وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤١ . والفَلْجُ ـ بالجيم ـ بوزن الفَلْس: الظَّفَر والفوز. والفَلَح ـ بالحاء ـ محركةً: الفوز والنجاة. القاموس (فلج) و(فلح).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٤ ، والطبري ٤/ ٤٨٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ ، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، والحاكم ٢/ ٥٥٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ . قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٤٥) من طريق سعيد بن جبير عنه بلفظ: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة.

(٥) أخرجه البزار في المسند (٦٣٨)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٩ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦١ لابن المنذر وابن مردويه.

محمدٍ، فقُل له: إنَّ الله يقولُ لك: إنَّا سنُرْضِيكَ في أمَّتك ولا نَسُوءُك»[١].

وقال عليٌّ ﷺ[٢] لأهل العراق: إنَّكم تقولون: إنَّ أَرْجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنَّا نقولُ ذلك. قال: ولكنَّا أهلَ البيت نقولُ: إنَّ أرْجَى آيةٍ في كتاب الله قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وفي الحديث: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «إذاً واللهِ لا أرضَى وواحدٌ من أمتي في النار»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾

عدَّد سبحانه مِنَنَه على نبيِّه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ لا أبَ لك، قد مات أبوك، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوًى تأوي إليه عند عمِّك أبي طالب، فكَفِلَك. وقيل لجعفر بن محمد الصَّادقِ: لمَ أُوتِمَ النبيُّ ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوقٍ عليه حقٌّ[٤].

وعن مجاهد: هو مِن قول العرب: درَّةٌ يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثْل[٥]. فَمَجازُ الآيةِ: أَلَم يجدك واحداً في شَرَفكَ لا نظيرَ لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾

أي: غافلاً عمَّا يرادُ بك من أمرِ النبوَّة، فهداك، أي: أَرْشَدَك. والضلالُ هنا

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٢)، وسلف ٨/ ٣٠٦.

(٢) كذا في النسخ، والصواب أنه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، كما في الحلية ٣/ ١٧٩، والوسيط ٤/ ٥١٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٨، والدر المنثور ٦/ ٣٦١ عن ابن المنذر وابن مردويه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير الرازي ٣١/ ٢١٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٣ دون نسبة.

بمعنى الغَفْلةِ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يَغْفَلُ. وقال في حقِّ نبيِّه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال قوم: «ضالًّا»: لم تكنْ تدري القرآنَ والشرائعَ، فهداك الله إلى القرآن، وشرائعِ الإسلام؛ عن الضَّحَّاك وشهر بنِ حوشب وغيرِهما. وهو معنى قولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢][1]، على ما بيَّنا في سورة الشورى.

وقال قوم: «ووجدك ضالًّا» أي: في قومٍ ضُلَّالٍ، فهداهم الله بك. هذا قولُ الكلبيِّ والفرَّاء[2]. وعن السُّدِّيِّ نحوُه، أي: ووجد قومك في ضلالٍ، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: «ووجدك ضالًّا» عن الهجرة، فهداك إليها[3].

وقيل: «ضالًّا» أي: ناسياً شأنَ الاستثناءِ حين سُئلْتَ عن أصحاب الكهفِ وذي القرنين والروح، فأَذْكَرَكَ، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقيل: ووجَدَكَ طالباً للقِبْلةِ فهداك إليها، بيانُه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٤]. ويكون الضَّلالُ بمعنى الطَّلبِ؛ لأنَّ الضَّالَّ طالبٌ.

وقيل: ووجدك متحيِّراً عن بيانِ ما نزل عليك، فهداك إليه، ويكونُ الضلالُ بمعنى التحيُّرِ؛ لأنَّ الضالَّ مُتحيِّرٌ.

وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك، فهداك إليه، ويكون الضلالُ بمعنى الضَّيَاعِ.

وقيل: ووجدك مُحِبّاً للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلالُ بمعنى المحبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: في مَحبَّتِك[4]. قال الشاعر:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩-٣٤٠ دون نسبة، وذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٩٩ ، والرازي ٣١/ ٢١٦ -٢١٧ عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب وابن كيسان.

(٢) بنحوه في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

هـذا الـضَّـلالُ أشـابَ منِّـي الـمَـفْـرِقـا والـعـارِضَـيْـنِ ولـم أكُـنْ مُـتَـحـقِّـقـا
عَـجـبـاً لـعَـزَّةَ فـي اخـتـيـار قـطـيـعـتـي بـعـد الـضـلالِ فـحَـبْـلُـهـا قـد أخـلـقـا[1]

وقيل: «ضالًّا» في شِعابِ مكةَ، فهداك: ردَّكَ[2] إلى جدِّك عبدِ المطَّلب؛ قال ابن عباس: ضلَّ النبيُّ ﷺ وهو صغيرٌ في شعابِ مكةَ، فرآه أبو جهل مُنْصَرِفاً عن أغنامه، فردَّه إلى جدِّه عبدِ المطلب[3]. فمنَّ الله عليه بذلك، حين ردَّه إلى جدِّه على يدي عدوِّه.

وقال سعيد بن جبير: خرج النبيُّ ﷺ مع عمِّه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليسُ بزمامِ الناقةِ في ليلةٍ ظَلماءَ، فعَدَلَ بها عن الطريق، فجاء جبريلُ عليه السلام فنَفَخَ إبليسَ نفخةً وقع منها إلى أرض الهند، وردَّه إلى القافلة؛ فمنَّ الله عليه بذلك[4].

وقال كعب: إنَّ حَليمةَ لمَّا قَضَتْ حقَّ الرضاعِ، جاءت برسول الله ﷺ لتردَّه على عبد المطلب، فسَمِعَتْ عند بابِ مكةَ: هنيئاً لكِ يا بَطْحاءَ مكةَ، اليومَ يُردُّ إليك النورُ والدِّينُ والبهاءُ والجمال. قالت: فوضعتُه لأصلِح ثيابي، فسمعتُ هدَّةً شديدةً، فالتفتُّ فلمْ أرَه، فقلت: مَعْشَرَ الناسِ، أين الصبيُّ؟ فقالوا: لمْ نَرَ شيئاً، فصِحْتُ: وا محمداه! فإذا شيخٌ فانٍ يتوكَّأُ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإنْ شاء أنْ يردَّه عليك فَعَلَ. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبَّل رأسَه وقال: يا رب، لم تَزَلْ منَّتُكَ على قريش، وهذه السعدِيةُ تزعم أنَّ ابنها قد ضلَّ، فرُدَّه إن شئت. فانْكَبَّ هُبَلُ على وجهه، وتَساقَطَتِ الأصنام، وقالت: إليكَ عنَّا أيها الشيخ، فهلاكُنا على يَدَيْ محمدٍ. فألقى الشيخ عصاه، وارْتَعَدَ وقال: إنَّ لابنِكِ ربًّا لا يضيعُه، فاطلُبيه على مَهَل.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٢) في (م): وردك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٩ .

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٩ وابن الجوزي ٩/ ١٥٩ عن سعيد بن المسيب، وفيهما: أرض الحبشة، بدل: أرض الهند.

فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يَجدِوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتَضَرَّع إلى الله أن يردَّه، وقال:

يـــا ربِّ رُدَّ ولـــدي مـــحـــمـــدا اردُدْه ربِّـــي واتَّـــخِـــذْ عـــنـــدي يـــدا

يـــا ربِّ إنْ مـــحـــمـــدٌ لـــم يُـــوجَـــدا فـــشَـــمْـــلُ قـــومـــي كـــلِّـــهـــم تـــبـــدَّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشِرَ الناس لا تَضِجُّوا، فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذلُه ولا يضيعُه، وإنَّ محمداً بوادي تِهامةَ، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بنُ نوفل، فإذا النبيُّ ﷺ قائمٌ تحت شجرةٍ يلعبُ بالأغصان وبالورق[1].

وقيل: «ووجدك ضالًّا» ليلةَ المِعراج، حين انصرف عنك جبريلُ وأنت لا تعرفُ الطريقَ، فهداك إلى ساقِ العرش.

وقال أبو بكر الورَّاقُ وغيرُه: «ووجدك ضالًّا»: تحبُّ أبا طالبٍ، فهداك إلى محبَّة ربِّك.

وقال بسام بن عبد الله: «ووجدك ضالًّا» نَفْسَك[2] لا تدري من أنت، فعرَّفك بنفسِك وحالك.

وقال الجنيد: ووجدك متحيِّراً في بيان الكتاب، فعلَّمك البيانَ، بيانُه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [النحل: ٤٤]. ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال بعض المتكلِّمين: إذا وَجَدتِ العربُ شجرةً منفردةً في فلاةٍ من الأرض، لا شجرَ معها، سمَّوْها ضالَّة، فيهتدَى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: «ووجدك ضالًّا» أي: لا أحدَ على دينك، وأنت وحيدٌ ليس معك أحدٌ، فَهدَيتُ بك الخَلْقَ إليّ[3].

---

(١) أخرجه مطولاً ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٤٧٤-٤٧٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنفسك، والمثبت من (ظ) وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧ ، قال الرازي: ونظيره قوله عليه السلام: «الحكمة ضالَّة المؤمن».

قلت: هذه الأقوالُ كلُّها حِسانٌ، ثم منها ما هو معنويٌّ، ومنها ما هو حِسِّيٌّ. والقولُ الأخيرُ أَعْجبُ إليَّ؛ لأنه يجمع الأقوالَ المعنوية.

وقال قومٌ: إنَّه كان على جملةِ ما كان القوم عليه، لا يُظهِرُ لهم خلافاً في ظاهر الحال، فأمَّا الشِّركُ فلا يُظَنَّ به، بل كان على مراسم القوم في الظَّاهِر أربعين سنة.

وقال الكلبيُّ والسدِّيُّ: هذا على ظاهره، أي: وجدك كافراً والقومُ كفَّارٌ فهداك[١]. وقد مضى هذا القولُ والردُّ عليه في سورة الشورى[٢].

وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشِّرْكِ، فميَّزك عنهم؛ يقال: ضلَّ الماء في اللبن[٣]، ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي: لَحِقْنا بالتراب عند الدَّفن، حتى كأنَّا لا نَتميَّز من جملته.

وفي قراءة الحسن: «ووجدك ضالٌّ فهُديَ» أي: وجدك الضالُّ فاهتَدَى بك[٤]، وهذه قراءةٌ على التفسير.

وقيل: «ووجدك ضالًّا» لا يهتدي إليك قومُك، ولا يعرفون قَدْرَك؛ فهدَى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

أي: فقيراً لا مالَ لك. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: فأغناك بخديجةَ رضي الله عنها؛ يقال: عالَ الرجلُ يَعِيلُ عَيْلةً: إذا افْتقَر؛ قال أُحَيحةُ بن الجُلاح:

فما يَدْري الفقيرُ متى غِناهُ ... وما يَدري الغنيُّ متى يَعِيلُ[٥]

أي: يفتقر.

---

(١) ذكره عنهما الرازي ٣١/ ٢١٧ .

(٢) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٥) ديوان أحيحة بن الجلاح ص٧٤ ، وسلف ٦/ ٣٩ .

وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق[١]. وقال الكلبيُّ: قنَّعك بالرزق.

وقال ابن عطاء: وجدك فقيرَ النَّفْسِ، فأغنَى قلبك.

وقال الأخفش[٢]: وجدك ذا عيالٍ، دليلُه: «فأغنى»، ومنه قولُ جرير:

اللـهُ أنـزلَ فـي الـكـتـاب فـريـضـةً لابـنِ الـسـبـيـلِ ولِـلـفـقـيـر الـعـائِـلِ[٣]

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها[٤].

وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيريُّ: وفي هذا نَظَرٌ؛ لأنَّ السورة مكيةٌ، وإنَّما فُرِضَ الجهاد بالمدينة[٥].

وقراءةُ العامَّةِ: «عائلاً». وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «عَيِّلا» بالتشديد[٦]، مثل: طيِّب وهيِّن.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تَسَلَّطْ[٧] عليه بالظُّلم، ادفع إليه حقَّه، واذكُرْ يُتْمكَ؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى[٨]. وعن مجاهد «فلا

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩ .

(٢) قوله في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٣) ديوان جرير ٢/ ٧٣٧ برواية: والله أنزل.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤ .

(٥) وذكر الرازي ٣١/ ٢١٩ أن هذا وإن كان حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان معلوم الوقوع كان كالواقع.

(٦) القراءات الشاذة ص١٧٥ .

(٧) في (ظ): تشط.

(٨) كذا وقعت هذه العبارة في هذا الموضع، وحقُّها أن تكون قبل ما سيأتي من قوله: والعرب تعاقب بين القاف والكاف، وبعد ذكر قراءة «تكهر» بالكاف، وفي الصحاح (كهر): قال الكسائي: كَهَره وقَهَره بمعنى.

تَقْهَر»: فلا تَحْتَقِرْ[١].

وقرأ النخَعيُّ والأشهب العُقَيليُّ: «تَكْهَرْ» بالكاف، وكذلك هو في مصحفِ ابنِ مسعود[٢]. فعلى هذا يَحتمِلُ أن يكون نَهْياً عن قَهْرِه بظُلِمْه وأَخْذِ مالِه. وخصَّ اليتيم لأنَّه لا ناصرَ له غيرُ الله تعالى، فغلَّظ في أمره بتغليظ العقوبةِ على ظالِمه.

والعربُ تُعاقِبُ بينَ الكافِ والقاف؛ النحَّاس: وهذا غلطٌ، إنَّما يقال: كَهَره: إذا اشتدَّ عليه وغَلَّظ.

وفي «صحيح» مسلم من حديث معاويةَ بنِ الحكم السُّلَميِّ، حين تكلَّم في الصلاة بردِّ السلام، قال: فبأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث[٣].

وقيل: القَهْر: الغَلَبةُ. والكَهْر: الزَّجْر.

الثانية: ودلَّتِ الآيةُ على اللُّطْفِ باليتيم، وبِرِّه والإحسانِ إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأبِ الرَّحيم. وروِي عن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً شَكَا إلى النبيِّ ﷺ قسوةَ قَلْبِه؛ فقال: «إنْ أردتَ أنْ يَلينَ، فامْسَحْ رأسَ اليتيم، وأَطْعِمِ المسكين»[٤].

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافلُ اليتيمِ له أو لغيره كهاتين» وأشار بالسبَّابة والوسطى[٥].

ومن حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اليتيم إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرشُ الرحمن، فيقولُ الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، مَن ذا الذي أبْكَى هذا اليتيمَ الذي غيَّبْتُ أباه في التراب. فتقول الملائكةُ: ربَّنا أنت أَعْلَمُ، فيقولُ الله تعالى لملائكته:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٥ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٥ .

(٣) صحيح مسلم (٥٣٧) مطولاً، وهو عند أحمد (٢٣٧٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٥٧٦)، وإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٨٣)، وهو عند أحمد (٨٨٨١)، وسلف ٢/ ٢٣٠ .

يا ملائكتي، اشْهَدوا أنَّ مَن أسْكَتَه وأرضاه أنْ أُرْضِيَه يومَ القيامة»[١]. فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضمَّ يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونَتَه، كان له حجاباً من النار يومَ القيامة، ومَن مسح برأسِ يتيمٍ كان له بكلِّ شعرةٍ حسنةٌ»[٢].

وقال أكثم بنُ صَيفيّ: الأذلَّاء أربعةٌ: النمَّام، والكذَّاب، والمَذْيونُ، واليتيم.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تَزْجُرْه. فهو نهيٌ عن إغلاظِ القول. ولكنْ رُدَّه ببَذْلٍ يَسيرٍ، أو ردٍّ جميل، واذكُر فَقْرَك؛ قاله قتادةُ وغيره[٣]. وروي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعنَّ أحدُكم السائلَ، وأنْ يعطِيَه إذا سأل ولو رأى في يده قُلْبينِ من ذهب»[٤].

وقال إبراهيم بن أدهم: نِعْمَ القومُ السُّؤَّالُ؛ يحملون زادَنا إلى الآخرة.

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: السائلُ بريدُ الآخرةِ، يَجيءُ إلى باب أحدِكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيءٍ.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رُدُّوا السائلَ بَبَذْلٍ يسير، أو ردٍّ جميل، فإنَّه يأتيكم مَن ليس من الإنس ولا من الجنِّ، ينظرُ كيف صنيعُكم فيما خوَّلكم الله»[٥].

---

(١) أخرجه ابن عدي ٢/ ٧٢١، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٩٩ من طريق سعيد بن المسيب عن عمر ﷺ، وهو عند ابن عدي مختصر. وفي إسناده الحسن بن أبي جعفر الجُفْري وهو ضعيف الحديث، كما ذكر الحافظ في التقريب. وسعيد بن المسيب لم يسمع من عمر. ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٦٤.

(٢) أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠٩٧، وفي إسناده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي، قال عنه البخاري: متروك، وقال يحيى: معروف بوضع الحديث، وقال أحمد: كان يضع الحديث. الميزان ٢/ ٢١٦.

(٣) أخرجه عن قتادة ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ بلفظ: ردّ السائل برحمة ولين.

(٤) أخرجه البزار (٩٥٢ ـ كشف)، وابن عدي ٢/ ٧٣٣. قال البزار: لا نعلمه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. اهـ. وفي إسناده الحسن بن علي الهاشمي، ضعفه أحمد والنسائي وأبو حاتم والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ١/ ٥٠٥. والقُلب: سوار المرأة. القاموس (قلب).

(٥) سلف ٤/ ٣٢٨، وذكرنا ثمة قول ابن الجوزي: هذا حديث لا أصل له.

وقيل: المرادُ بالسائل هنا: الذي يَسألُ عن الدِّين، أي: فلا تَنْهره بالغِلْظةِ والجَفْوة، وأجِبْه برفقٍ ولين؛ قاله سفيان[١]. قال ابن العربيِّ[٢]: وأمَّا السائلُ عن الدِّين فجوابُه فَرْضٌ على العالِم على الكفاية، كإعطاءِ سائلِ البِرِّ سواء. وقد كان أبو الدَّرْداءِ ينظرُ إلى أصحاب الحديث، ويبسطُ رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبَّةِ رسولِ الله ﷺ[٣].

وفي حديثِ أبي هارون العَبْديِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، قال: كنَّا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحَبًا بوصيةِ رسولِ الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس لكم تَبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطارِ الأرضِ يتفقَّهون، فإذا أتَوْكم فاستوصُوا بهم خيراً»[٤]. وفي روايةٍ: «يأتيكم رجالٌ مِن قِبَلِ المَشْرِقِ...» فذكره[٥].

و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده، وحقُّ المنصوبِ أن يكون بعد الفاءِ، والتقدير: مهما يكن من شيءٍ فلا تَقْهرِ اليتيم، ولا تنهر السائل[٦].

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سألتُ ربِّي مسألةً ودِدْتُ أنِّي لم أسألها، قلتُ: يا ربِّ، اتَّخذتَ إبراهيمَ خليلاً، وكلَّمْتَ موسى تكليماً، وسخَّرتَ مع داود الجبالَ يسبِّحْنَ، وأعطيتَ فلاناً كذا، فقال عزَّ وجلَّ: ألَمْ أجِدْكَ يتيماً فآويتُك؟ ألم أجِدْكَ ضالًّا فهديتُك؟ ألم أَجِدْكَ عائلاً فأغنيتُك؟ ألم أَشْرَحْ لك صدركَ؟ ألم أُوتِكَ ما لم أُوْتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورةِ البقرة، ألم أتَّخذك خليلاً كما اتَّخذتُ إبراهيمَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٥.

(٣) ذكره ابن بشكوال في الصلة ص٤١٢.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠)، وأبو هارون العبدي اسمه عمارة بن جُوَين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٥) سنن الترمذي (٢٦٥١)، وهو أيضاً من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٢٤.

خليلاً؟ قلتُ: بلى يا رب»[١].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: انشُرْ ما أنْعمَ الله عليك بالشكر والثناء. والتحدُّثُ بنِعَم الله والاعترافُ بها شكرٌ. وروى ابنُ أبي نجِيح عن مجاهد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قال: بالقرآن. وعنه قال: بالنبوَّة[٢]، أي: بلِّغ ما أُرْسِلْتَ به. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والحُكْمُ عامٌّ له ولغيره.

وعن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: إذا أَصَبْتَ خيراً، أو عملتَ خيراً، فحدِّثْ به الثِّقةَ من إخوانك[٣].

وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه مَن يثقُ به، يقول له: رَزَقَ الله من الصلاة البارحةَ كذا وكذا[٤].

وكان أبو فراسٍ عبدُ الله بنُ غالب[٥] إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحةَ كذا، قرأتُ كذا، وصلَّيتُ كذا، وذكرتُ الله كذا، وفعلتُ كذا. فيقال له: يا أبا فِراس، إنَّ مثلك لا يقولُ هذا! قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وتقولون أنتم: لا تحدّثْ بنعمة الله[٦]! ونحوه عن أيوبَ السختِيانيِّ وأبي رجاءٍ العُطارِديِّ ﷺ[٧].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٨٩)، والحاكم ٢/ ٥٢٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩١-٤٩٢ ، وفي الوسيط ٤/ ٥١١-٥١٢ ، والبغوي ٤/ ٤٩٩ . وليس فيه عندهم: ألم أوتك... كما اتخذت إبراهيم خليلاً.

(٢) أخرج الأول عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ . وأخرج الثاني الطبري ٢٤/ ٤٩٠-٤٩١ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ . وذكره الرازي ٣١/ ٢٢١ ثم قال: إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٥ ، والحاكم ٢/ ٥٢٧ .

(٥) الحُدَّاني البصري العابد، توفي سنة (٨٣ هـ). تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠١ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٧ .

(٧) ذكره عنهما ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٦ .

وقال بكر بن عبد الله المُزَنيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «مَن أُعطِيَ خيراً فلم يُرَ عليه، سمِّي بغيضَ الله، مُعادياً لنِعَم الله»(١).

وروى الشعبيُّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن لم يَشْكُرِ القليلَ لم يَشْكُرِ الكثير، ومَن لم يشكر الناسَ لم يشكرِ الله، والتحدُّثُ بالنِّعمِ شكرٌ، وتَرْكُه كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفُرْقةُ عذابٌ»(٢).

وروى النسائيُّ عن مالك بن نَضْلةَ الجُشَميِّ قال: كنتُ عند رسولِ الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثيابِ فقال: «ألَكَ مالٌ؟» قلتُ: نعم يا رسول الله، مِن كلِّ المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثرُهُ عليك»(٣).

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ويحبُّ أن يرى أثَر نعمته على عبده»(٤).

فصل: يكبِّر القارئُ في روايةِ البزِّيِّ عن ابن كثير، وقد رواه مجاهدٌ عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ: إذا بلغ آخِرَ «والضُّحى» كبَّر بين كلِّ سورةٍ تكبيرةً، إلى أن يختم القرآن. ولا يَصِلُ آخِرَ السورةِ بتكبيرةٍ، بل يفصلُ بينهما بسكتة(٥). وكأنَّ المعنى في ذلك أنَّ الوحي تأخَّر عن النبيِّ ﷺ أياماً، فقال ناسٌ من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٣٦٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٨٤٤٩). وإسناده ضعيف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢. وقوله: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ١٨٠-١٨١.

(٤) أخرجه أبو يعلى (١٠٥٥)، وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف. ويشهد لجزئه الأول حديث ابن مسعود ﷺ عند أحمد (٣٧٨٩)، ومسلم (٩١). ويشهد لجزئه الثاني حديث عبد الله بن عمرو عند الترمذي (٢٨١٩). قال الترمذي. حديث حسن.

(٥) وهذه رواية النقاش، عن أبي ربيعة، عن البزي، كما ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص٢٢٦، إلا أنه ذكر أن الأحاديث الواردة عن المكيين دالةٌ على أنه يَصِلُ التكبير بآخر السورة؛ قال: لأن فيها: «مع»، وهي تدل على الصحبة والاجتماع.

المشركين: قد ودَّعه صاحبُه وقَلاه، فنزلت هذه السورةُ، فقال: «الله أكبر»[١].

قال مجاهد: قرأتُ على ابنِ عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيٍّ، عن النبيِّ ﷺ.

ولا يكبِّر في قراءةِ الباقين؛ لأنَّها ذرِيعةٌ إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآنُ ثبتَ نقلاً متواتراً، سورُه وآياتُه وحروفُه؛ لا زيادةَ فيه ولا نقصان؛ فالتكبيرُ على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوبُ في المصحف بخطِّ المصحفِ ليس بقرآنٍ، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أمَا إنه ثبتَ سنَّةً بنقلِ الآحاد، فاستحبَّه ابنُ كثير، لا أنَّه أوْجَبه فخطَّأ مَن تَرَكه.

ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظُ في كتاب «المستدرك» له على البخارِيِّ ومسلم: حدَّثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئُ الإمامُ بمكة في المسجد الحرام، قال: حدَّثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغُ، قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزةَ: سمعتُ عكرمةَ بنَ سليمان يقول: قرأتُ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال لي: كبِّر عند خاتمةِ كلِّ سورة حتى تختم، فإنِّي قرأتُ على عبد الله بن كثير فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال: كبِّر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد [فأمره بذلك]، وأخبره مجاهدٌ أنَّ ابن عباس أمَره بذلك، وأخبره ابن عباس أنَّ أُبيّ ابنَ كعب أمره بذلك، وأخبره أُبيّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديثٌ صحيحٌ ولم يخرِّجاه[٢].

---

(١) بنحوه في الوسيط ٤/ ٥١٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠١ .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٠٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقد تعقبه الذهبي بقوله: البزي قد تُكُلِّم فيه. وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (١٧٤٤)، والداني في التيسير ص٢٢٧ ، وينظر جامع البيان للداني ٢/ ٥٠١-٥٠٥ . وذكره ابن كثير في بداية تفسير سورة الضحى وقال: فهذه سنَّةٌ تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزَّة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال: أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.